عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي

ملحوظات وتعليقات حول مشروع حسن المودن

Artificial Intelligence in Society

Towards a Sociology of the Digital Age

أ. عبد الحي طالبي

أقسام التقني العالي بوزارة التربية الوطنية

المغرب

talbi82@hotmail.fr

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

ABSTRACT:

The aim of this research is to present Hassan Al-Moudan's project, defining its themes, issues, concepts, and references, while also highlighting its methodological value through a number of notes and comments.

The study concludes that the importance of this project lies primarily in its ability to conduct "critical interventionist" readings of psychoanalysis, its applications, and its fundamental concepts (such as the Oedipus complex), on the one hand, and of its founding texts and many other literary and religious texts, on the other. This aims to generate new analytical perspectives that contribute to renewing knowledge of the human psyche and revealing its mental, emotional, and behavioral manifestations, as well as its fraternal, social, and human relationships. This perspective is similar to the one that holds that the "brotherhood complex" is our original complex. One of the fruits of this project was the affirmation that religious, mythological, and literary narratives, both ancient and modern, are the source from which knowledge of the human psyche is derived and the litmus test against which theories and methods are tested.

Keywords: Psychoanalysis, Brotherhood Complex, Hassan Al-Moden, Interventionist Criticism.

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

الذات؟ أليست الأخوة بالمكان المفضل لرهانات التنافس بحثا عن السلطة: فأن تكون أخا امر يستلزم أن تتنازل عن السلطة؛ وأن تكون أخا يعني أن تقبل بالإخصاء، وأن تتراجع عن بحثك عن السلطة والمتعة؟.. ولكن أتستحضر الأخوة المنافسة والصراع والموت فحسب، ألا يمكنها أن تعني التعاون والتضامن والحب؟ ألا تعني الأخوة الشيء ونقيضه: المنافسة/ التعاون؛ الكراهية/ المحبة؟[1]

تنقلنا هذه الإشكالات، بمهارة حجاجية فائقة، من التساؤل عن موقع "الأخ" من التحليل النفسي إلى إثبات مشروعية الاهتمام به، ومن التساؤل عن جدوى التفكير فيه إلى البحث عن الصيغ الممكنة لحضوره والدلالات المحايثة والمفارقة، في الآن نفسه، لوجوده؛ حيث تحيل الأخوة على "الشيء ونقيضه: المنافسة/ التعاون؛ الكراهية/ المحبة".

2-3- سؤال الأخ.. من الإهمال إلى الاحتفاء:

لا شك أن الأسئلة السابقة تضمر سؤالا محوريا حول الكيفية التي يمكن، من خلالها، إعادة الاعتبار لسؤال الأخ وحول موقع التحليل النفسي ضمن هذا السؤال. فمن أين نبدأ وكيف نشيد المفهوم الجديد "عقدة الأخوة" دون الوقوع فيما وقع فيه المحللون التقليديون؟

يقترح علينا الكتاب الاتجاه مباشرة نحو المنبع الصافي الذي تتفجر منه المعاني النفسية، وهو المتون الحكائية، مقترحا إضاءة التحليل النفسي بالأدب من خلال استيلاد مركبات عقدية جديدة بما يزيد من "تطوير معرفتنا بالإنسان، بلغته وأدبه، وخاصة من الناحية النفسانية"[2]، ويسهم، بالتبَع، في "تجاوز التصور الفرويدي الذي يركز على النمو النفسي الجنسي القائم على الدينامية النفسية الداخلية والفردية، إلى تصور نفسي يحاول أن يؤسس تحليلا نفسيا قادرا على وصف هذا الفضاء العلاقي التفاعلي بين الذوات الإنسانية في فضائها العائلي الاجتماعي المشترك"[3]

يتأسس هذا التصور النفسي الجديد على **افتراضين رئيسين**؛ يتعلق أولهما بجدوى تطبيق الأدب على التحليل النفسي ويتعلق الثاني بضعف العناية ب"عقدة الأخوة" في الدراسات النفسية. ولا يخفى على المتتبع أن هذين الافتراضين مؤسسان على كتابات بيير بيار وخاصة كتابه: "هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟" (2004) بما يحمله من تقديرٍ كبير للأدب وتعديل صريح في هوية المحلل النفسي (الذي سيصبح قارئا محللا) ونزوعٍ قوي نحو "الخروج من نظام التفكير الذي وضعه التحليل النفسي"، عبر "استيلاد التحليل النفسي من الأعمال الأدبية نفسها" لا الاكتفاء بجعلها مدونات خرساء يُنطقها المحللون التقليديون بالجاهز من تصوراتهم و"عقدهم"...

1- المودن، الإخوة الأعداء، ص12.

2- المرجع نفسه، ص13.

3- المرجع نفسه، ص16.

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

3-3- عقدة الأخوة؛ رهانات وطموحات:

هكذا يُعلن القارئ المحلل حسن المودن عن مرجعياته ومنطلَقاته النظرية، بخصوص عقدة الأخوة، ويعززها بشروح ضافية وإحالات دقيقة ومركزة. وهو إعلان يُفصح عن تطلعات وطموحات كبيرة بخصوص أصالة "عقدة الأخوة" تحديدا وبتجديد التحليل النفسي عموما، كما أنه إعلان مشوب بتحفظات واحترازات لا تخفى؛ وذلك ما نفهمه من استعماله لمفهوم "عقدة قابيل" (إلى جانب عقدة الأخوة)، ومن ملاحظاته حول تاريخ اشتغاله بعقدة الأخوة (2013) وتاريخ اطلاعه على كتاب كاييس (2020) وموقع النصوص الأدبية والدينية من مشروعه والهدف من دراساته مقارنةً مع المحللين النفسيين عموما ورونيه كاييس خصوصا، يقول:

"هدفي ليس أن أطور التحليل النفسي من الناحية الطبية، بل هدفي أن أكشف كيف يمكن للآداب أن تكشف النقاب عن عقد ومركبات أخرى، وأن تعيد النظر في عقدة أوديب التي يمنحها فرويد الصدارة في تأسيسه للتحليل النفسي؛ وفي هذه الغاية يدعم كتابي كتاب كاييس، مع وجود فارق: تجديد المعرفة بالإنسان، بحياته النفسية، باشتغاله الذهني والاجتماعي، بعلاقاته الأخوية والاجتماعية والإنسانية، وذلك بالانطلاق من أساطيره ومحكياته الدينية ومسرحياته ورواياته... "[1].

تُلخِّصُ العبارة التفسيرية في النص أعلاه: "تجديد المعرفة بالإنسان، بحياته النفسية، باشتغاله الذهني والاجتماعي، بعلاقاته الأخوية والاجتماعية والإنسانية، وذلك بالانطلاق من أساطيره ومحكياته الدينية ومسرحياته ورواياته..." الغايةَ والوسيلة في الوقت نفسه؛ فالغايةُ هي تجديد المعرفة بالإنسان والوسيلةُ هي قراءة المتون الحكائية بغرض استكشاف مركبات جديدة غيرَ المركب المألوف (أوديب). يبقى الإنسان غامضا على الدوام وتبقى النصوص أداة مثالية لاستكشاف هذا الغموض، ومعنى هذا أن أكثرَنا اطلاعا وأمهَرَنا قراءة سيكون أكثرَنا فهما ومعرفة بالإنسان، بحياته النفسية وباشتغاله الذهني والاجتماعي وبعلاقاته الأخوية... وبناء على هذا، فليس المحلل النفسي المحترف بأحقَّ من غيره في بناء المعرفة بالإنسان وترسيمها، بل ربما كان هذا المحلل أبعد من غيره عن إدراك هذه المعرفة، في حال لم يطور أدواته ولم يجدد قراءاته ويراجع نظرياته ومفهوماته، ورُبَّ أديبٍ قد أبصر ما لم يبصره كبار المحللين، ورُبَّ ناسكٍ حكيم قد عرف ببصيرته النافذة ما لم يعرفه الخبير المتمرس بتقنياته المعقدة، وربَّ قارئٍ شغوف بالأدب قد اكتشف من خبايا النفس ما لم يكتشفه غيره من المتبجحين بعلومهم... ألا ما أبلغ المؤسس فرويد حين وصف الشعراء والروائيين بأنهم الخبراء والأساتذة في معرفة النفس البشرية!

يعِدُ هذا الإطار النظري الناظم للدراسات المشكلة للكتاب (نظريا وتطبيقيا) بمنظور تحليلي جديد يرتكز بالأساس على الإنصات لأكبر قدر من النصوص (المختلفة زمانا ونوعا وأسلوبا ولغة) مع التلطف في قراءتها وتأويلها. وغير خاف على المتتبع أن هذا النهج أكثرُ ملاءمةً من المناهج التقليدية التي وقعت في توثين النظريات وتقديسها حتى حجبت النصوص بدل إضاءتها وتفسيرها واستلهامها، فما أبعد الفرقَ بين ترديد

1- المودن، الإخوة الأعداء، مرجع سابق، ص41.

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

4-1- في قراءة المحكي الديني (اليوسفي والإبراهيمي والقابيلي):

يضم هذا المبحث ثلاث دراسات؛ تتعلق أولاهما بالنبي يوسف ("قصة يوسف الدينية عكس أسطورة أوديب الممسرحة")[1]، وتتعلق الدراستان الأخريان ("قابيل وهابيل: قتل الأخ، الخاصية الراسخة في العائلة الأولى" و"إسماعيل وإسحاق: أعقدة أوديب أم عقدة إبراهيم أم عقدة قابيل؟") بما جرى أولَ الأمر بين قابيل وهابيل وبين إسماعيل وإسحاق انطلاقا مما ورد في النص الديني. ولا شك أن كل هذه الدراسات تحيل على نمط خاص من المحكي هو المحكي الديني، وتَعِدُ بقراءة نفسانية خاصة محورها عقدة الأخوة لا عقدة أوديب. وهي قراءة يمكن تكثيفها في زوج "المساءلة والاعتبار"؛ مساءلةٌ تستكنه خبايا المحكي الديني وتستكشف أسباب قوّته، واعتبارٌ مؤسس على إنصات لما يقوله هذا المحكي وتلطُّف في استشفاف ما يمكن أن يقدمه من معرفة نفسانية بالإنسان، مغايرة للمعارف المستوحاة من أسطورة أوديب الممسرحة.

أ. عُنيت الدراسة الموسومة ب"قصة يوسف الدينية عكس أسطورة أوديب المَسرحة" بإثبات أن مسار قصة يوسف مباين لمسار أسطورة أوديب، وإثبات أن العلاقة مع الأب والأم فيها مغايرة تماما لتلك العلاقة المعبر عنها في أوديب، وأن الثالوث المؤطر للأسطورة (ابن/ أب/ أم) يتراجع أمام ثالوث جديد هو ابن/ أبوان/ إخوة)؛ فلا مشكلة إطلاقا مع الأبوين، بل هناك طرف آخر فعال ولكنه مهمل في التحليل. إنه الإخوة (الأعداء في البداية/ السند في النهاية)... هؤلاء الذين يرغبون في أن يحاكوا يوسف ويقلدوه ويمتلكوا ما يمتلكه، بل ويريدون أن يحلّوا محله. ليست المشكلة مع الأب، إذن، المشكلة هي هذه الرغبة الأخوية المستعرة في حيازة ما عند الآخر، في هذه الغيرة العاصفة التي تريد الاستئثار بحب الأب والحلول عنده محل يوسف المحبوب الذي ترسخت صورته في نفوس الإخوة واستبدت بهم حتى تحول إلى "قرين نرجسي" بمثابة "المثال أو النموذج المضطهِد الذي أحس تجاهه بالغيرة، وهذه الغيرة قد تخفي عنفا يكشف عن هذه الإرادة في أن يكون الأخ مثل أخيه بالضبط، أي أن تمتلك الأنا ما يمتلكه الآخر"[2]. ومن اللافت أن هذا القرين المضطهِد سيتحول في نهاية القصة إلى أخ شبيه بالذات؛ إذ ستنقلب معاني التنافس والحسد والكيد إلى معان إيجابية، وستتقلص المسافات بين الأطراف المتصارعة وسترتسم صورة "الأخوة السعيدة" بين يوسف وإخوته مجسدة أسمى معاني المحبة والتضامن والتماسك.

كل هذه الإثباتات مجرد توطئة وتمهيد لتجاوز أكبر يتجه إلى إزاحة مفهوم "عقدة أوديب" عن مركز الاهتمام وإحلال مفهوم جديد محله هو "عقدة الأخوة". إنه تجاوز ينبهنا إلى أن "وظيفة الأخوة أخطر من وظيفة الأب والأم [...] لأنها تعلم التواصل مع الآخرين وبناء الروابط وتدبير العلاقات..."[3]، وهو تجاوز يذكرنا أيضا، من خلال ما تقوله النصوص، بأن "**عقدة الأخوة هي عقدتنا الأصل** التي لم يولها التحليل النفسي

1- هي صيغة معدلة لدراسة له منشورة بعنوان: "قراءة نفسانية في قصة النبي يوسف. عقدة الأخوة أولى من عقدة أوديب"، مجلة تبين 3، العدد 10، (خريف 2014).

2- المودن، الإخوة الأعداء، مرجع سابق، ص51.

3- حسن المودن، "قراءة نفسانية في قصة النبي يوسف. عقدة الأخوة أولى من عقدة أوديب"، 46. والمودن، الإخوة الأعداء، ص107.

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

العرب واليهود (وخاصة في فلسطين)؛ وفي هذا الصدد، عُني المودن بمحاورة ثلاثة من الباحثين الكبار في التحليل النفسي وهم فرويد وعبد الكبير الخطيبي وفتحي بن سلامة، مع عناية خاصة بهذا الأخير لكونه قد نصَّ على مسألة الأخوة، وجعل لها مبحثًا خاصا في كتابه: "الإسلام والتحليل والنفسي" باسم: القتل الأخوي[1].

لقد اتجهت هذه الدراسة، أولا، إلى استئناف تلك الملاحظة الدقيقة التي أوردها الخطيبي في كتابه النقد المزدوج قائلا: "لكم يدهشني أن فرويد قد فضل صورة موسى على أب الأخلاق المذنبة، وما أكثرها انتشارا في عصرنا"[2]، فيجتهد، على غرار الخطيبي[3]، في تفسير سبب تجاهل فرويد للنبي إبراهيم، مبينا أنه ربما كان ذلك بسبب وعي فرويد بأن المحكي الإبراهيمي مؤسس على عقدة أخرى غير تلك التي تؤطر المحكي الموسوي. إنها العقدة التي سماها الخطيبي ب"عقدة إبراهيم" وأشار إليها بن سلامة باسم "القتل الأخوي".

تثمن هذه الدراسة ما أورده هذان الباحثان من تفسيرات وتأويلات حول المحكي الإبراهيمي لكنها تفترض أن قراءتهما تتطلب مزيدا من التدقيق والتفصيل، وخاصة فيما يتعلق بقصة إسحاق وإسماعيل، فتقترح، تبعا لذلك، تطويرَ "عقدة قابيل"، حتى تصير إطارا لفهم هذه القصة وتفسيرها بوصفها صورة من صور الصراع المستحكِم بين الإخوة حول الإرث المادي والرمزي الذي يمثله الأب إبراهيم، وهو ذات الصراع الذي تجسد قديما بصورة فاقعة مع قابيل وهابيل، ومازال ممتدا بصور مشابهة أو مختلفة قليلا حتى الآن (وهذا ما يستبعده بن سلامة تماما، وما لم يتوقف عنده الخطيبي كثيرا رغم ربطه القصةَ بالصراع العربي الإسرائيلي)؛ ف"عندما يتحول النبي إبراهيم إلى موضوع للصراع بين الإخوة الأعداء، ويشتد الصراع ويمتد إلى العصر الراهن حول مَن مِن ورثة الابنين يحق له أن يرث ميراث الأب الأكبر إبراهيم، فإنني أفترض أننا أمام عقدة الأخوة التي سميتها عقدة قابيل"[4]. هكذا ستحل عقدة قابيل محل عقدة إبراهيم (الخطيبي) ومحل الشرخ الأبدي بين مبدأي المادة والروح، عند بن سلامة. ومن الأمور الجديرة بالعناية في هذه الدراسة، ذلك التفاؤل بإمكانية حل الصراع بين الإخوة عن طريق إعادة بناء صورتي إسحاق وإسماعيل باعتبارهما أبوين، وذلك ب"أن يولدوا آباءهم بفهم جديد، بمعنى جديد، ولغاية مختلفة"[5]، وبالانتقال من الأخوة القاتلة إلى الأخوة السعيدة، وعن طريق تجريب الاستماع لهذا الأخ الذي طال إهماله وتهميشه (إسماعيل رمز الكلام والخصوبة والحياة)، وهذا خلاف ما تتجه إليه الدراستان الأخريان اللتان تدفعاننا إلى نوع من الحتمية، عند بن سلامة (الشرخ الأبدي) أو الحلول الراديكالية النيتشوية (بالخروج من أخلاق الإثم

1- فتحي بن سلامة، الإسلام والتحليل النفسي. ترجمة: رجاء بن سلامة. (بيروت: دار الساقي، 2008).
2- عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، (منشورات عكاظ، 2000)، ص164.
3- يتساءل الخطيبي: "لماذا هذا النسيان لإبرهيم؟ أهو عائد لخروج هذا عن التفسير الأوديبي؟"، الخطيبي، النقد المزدوج، ص178.
4- المودن، الإخوة الأعداء، ص77.
5- المودن، الإخوة الأعداء، ص88.

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

يكتفي باتخاذ القرآن الكريم مدونة للتطبيق بل يعتبره مرجعا للقراءة، فهو، إذن، نص مقروء بمنهج التحليل النفسي وفي الآن نفسه هو نص قارئ لهذا المنهج.

- أنه ينخرط في تحقيق معنى كونية العلم، لأنه لا يقدس المنجز فيه من مفاهيم وآليات وتطبيقات ثم يُخضع النصوص لسلطانها، بل هو يسعى إلى اختبار فاعلية ما أنجز في هذا العلم وبيان حدود فعاليته من خلال النصوص المنتمية لثقافات مختلفة ولأجناس متباينة.. هكذا يصبح التحليل النفسي إطارا عاما مفتوحا، يمكن إغناؤه وتطويره باستمرار، دون التقيد "المرَضي" بمتون أو رؤى أو منظورات خاصة فيه.
- أنه يحرص على التماس مفاهيم محايثة للنصوص المقروءة، كمفهوم عقدة قابيل، والذي أثبت المؤلف قدرته التفسيرية الكبيرة بنماذج متعددة. كما أثبت فعاليته في تفسير كثير من مشاكلنا الراهنة، وعلى رأسها هذا الصراع السياسي، المتدثر بأثواب الهوية والطائفة والمذهب... بين الإخوة الأقارب والأباعد من آدم عليه السلام.

5- خلاصات وتساؤلات:

إجمالا نقول إنَّ مشروع حسن المودن كان ثمرة اشتغال مزدوج بالنصوص والنظريات النقدية؛ نتيجة بصر بغنى النصوص وخضرتها و"كسلها" كما يقول أمبرطو إيكو، ونتيجة بصر بحدود النظريات ورماديتها و"تبجحها"، بل وكسَلها أيضا... ليس النص وحده هو الكسول، لكن كسل التحليل النفسي مباين لكسل النصوص. كسل النصوص محفز على الاجتهاد في التأويل وتوليد الرؤى والمفاهيم والتصورات وأما كسل التحليل النفسي، في صيغه التقليدية، فعائقٌ يعرقل الفهم ويشوش عليه لأنه، مثلما يقول حسن المودن: "سرعان ما يركن إلى مسلماته على أنها الحقيقة كلها"[1]، متجاهلا أن تلك المسلمات ليست سوى واحدة من الافتراضات الممكنة لا غير. ولا يمكن أن تتحول الافتراضات، بأي حال من الأحوال، إلى مقدسات ميتافيزيقية تعلو على النصوص وتستبد بها لتحجب ما تزخر به من إمكانات.

هكذا يأتي مشروع الباحث المحلل حسن المودن، المتوَّج بكتابه: "الإخوة الأعداء"، ملحا على الحاجة إلى تجديد التحليل النفسي وتطويره. وقد لاحظنا أن هذا التجديد يمر بإعادة الاعتبار للنصوص قديمها وحديثها وبإحسان الإصغاء إلى ما تقوله ثم بمراجعة ما قُدِّم حولها من قراءات وتأويلات، فضلا عن تنويع المتون وتكثيرها، أسطورية كانت أو دينية أو أدبية، قديمة أو حديثة. وقد كان من نتائج هذه التجديد اكتشاف منظورات ومفاهيم جديدة، على غرار مفهوم عقدة قابيل، ومن نتائجه أيضا تصحيحُ أفكار وتصورات عمرت طويلا، على غرار فكرة جناية كل من أوديب وهاملت...

هناك، إذن، مصادر لا تنضب لمعرفة النفس الإنسانية. ولا يمكن للتحليل النفسي أن يدَّعي الاستقلال بأنساقه ومفاهيمه عنها أو يعلنَ قدرتَه على الانفصال عنها، مهما بلغت قوة الإحكام في تصوراته ونظرياته؛

1- المودن، الأدب والتحليل النفسي، مرجع سابق، ص96.

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ـــــــ

14- المودن حسن: "أوديب، هل هو قاتلُ أبيه فعلًا؟ من عقدة أوديب إلى عقدة جوكاست"، مجلة الفيصل، يوم 1 نوفمبر 2022، اقتبس يوم: 25 نونبر 2022: https://www.alfaisalmag.com/?p=27689

15- المودن حسن: **الإخوة الأعداء في السرد العربي والغربي، مقاربة نفسية جديدة**. عمّان: دار كنوز المعرفة، 2023.

16- نويل جان بيلمان، **التحليل النفسي والأدب**، ترجمة حسن المودن، طبعة جديدة مزيدة ومنقحة، دار كنوز، عمان، الأردن، 2017.

المراجع باللغة الفرنسية:

1- De Gaulejac, C. Pierre Bayard dans les défilés du langage. Liberté, (319), URI : https://id.erudit.org/iderudit/89412ac Diffusion numérique : 10 décembre 2018 ; 7–10